

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا (١) إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضمدين ، أو بين المتقابلين هو أُنق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء ، فإحياناً يصعد الظل على الضوء ، وإحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿إِذَا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ - يَا مُحَمَّد - عَلَى قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْفَتْحِ: فَتَحَ مَكَّةَ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ مِنْ شَتَوَى الْعَرَبِ وَقِبَالَتِهَا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا: أَي: فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَهُ بِهِ. أَفْوَاجًا: يَعْنِي: زُمَرًا (جَمَاعَاتٍ) ، فَوْجًا فَوْجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: أَي: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ عَظَمِ بَصَدَدِهِ وَشُكْرِهِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ: وَسَلِّمْ أَنْ يَغْفِرَ لِقَوْمِكَ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا: أَي: ذَا وَجْهِ لِعَبْدِهِ الْمَطِيعِ إِلَى مَا يَحِبُّ. [مختصر تفسير الطبري - بتصريف].

(٢) استقام الشيء: خلا من العرج، واستقام المؤمن: سلك الطريق القويم. قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا لَكُمْ فَاسْتَغِيرُوا لَهُمْ... (٢)﴾ [التوبة] أَي: حَافِظُوا عَلَى الْوَفَاءِ لَهُمْ بِعَهْدِكُمْ مَا بَادُوا هُمْ بِحَافِظَتِهِمْ عَلَى عَهْدِكُمْ، وَلَمْ يَنْكُرُوا الْعَهْدَ مَعَكُمْ. [القاموس القويم: مائة (قوم)].

(٣) طغى يَطْغُو طَغْرًا وَطَغْوًى: قِيلَ وَائِي، بِمَعْنَى: تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْجَوْرِ وَالتَّعَدَّى. وَطَغَى يَطْغَى: وَطَغَى طَغْيَاتًا: قِيلَ يَأْتِي، بِمَعْنَى: تَجَاوَزَ الْحَدَّ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ طَفَرُوا فِي الْأَلْبَانِ (٣)﴾ [الفجر]. أَي: ظَلَمُوا وَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْحَسْبِ. [القاموس القويم: مائة (طغى)].

سُورَةُ هُودٍ

١٧٠٩

وهكذا يصبح فصل الشيء عن تقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « شيبنتي هود وأخواتها »^(١).

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ^(١) ۖ ۝ (١٦) ﴾ [التغابن]

قلولاً نزل هذه الآية لتعب المسلمون تعاماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ^(٢) ۖ ۝ (١٧) ﴾ [آل عمران]

وعز ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فسأزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بل أن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ^(٣) ۖ ۝ (١٦) ﴾ [التغابن]

إنن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شيب؟ قال: « شيبنتي هود وأخواتها » أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٧ / ٣٧) من حديث عتبة بن عامر وعزاه للطبراني وقال رجاله رجال الصحيح وأخوات سورة هود التي شيبها رسول الله هي سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٣٢٦٧).

(٢) اتقى: أصله (أوقى) على وزن (فتعل) ، قلبت واو الفعل تاء ، وادخلت في تاء الاعتلال ، وانقى الله: تجنب ما يفضيه، وما يسمي عذابه، وذلك بطاعة الله ، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَكُمْ تَقْوَنَ (١٦) ﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وتروك معصيته. [القاموس القويم: مادة (وقى)].

(٣) التقى: الاتقاء والتقوى. وأصلها: وقوة، قلبت الواو تاء ، والياء ألفاً. وجمعها: تقى. قال تعالى: ﴿ (١٦) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [آل عمران] أي: إلا أن تخلفوا عنهم شرراً وتعصروا منهم مكروهاً لا تريدونه لأنفسكم. [القاموس القويم: مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ .. ﴾ (١١٢) [هود]

وهذا إيدان بالآيئس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد فريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٣) [هود]

يعنى ألا تتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ^(١) .. ﴾ (١٢٩) [البقرة]

وهذا القول فى الأوامر ، أما فى النواهي فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ^(٢) .. ﴾ (١٨٧) [البقرة]

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٩١) [البقرة] أى: فعاقبوه على اعتدائهم. وسُمي عقاب المعتدى اعتداءً للعشاء. الله. وعدا بهوى. عدواً. جرى. وعدا عليه عدواً وعدواناً: ظلمه وصال عليه. مثل: اعتدى عليه. والد راد بعدم الاعتداء هذا: عدم تجاوز حدود الله التي نهى سبحانه عن اقتراحها. [القاموس القويم: ملحة (عدا) يتصرف].

(٢) قربت الأمر. أقربه قرباناً وقرباً: شغلته أو دانيته. ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى .. ﴾ (٣٢) [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴾ [البقرة] أى: لا تاتياها ولا تلمسها ولا تأكلوا منها والنهى من باب أولى عن الشجر. وكذلك: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى .. ﴾ (٣٦) [الإسراء] فإن النهى عن القرب منه، وهو نهى عن المس من القيلة ونحوها مما يقرب الإنسان من الوقوع فيه. [القاموس القويم: سامة (ق ر ب)].

أى: أن تبعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ : «من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى^(١) يوشك أن يرتع^(٢) فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه»^(٣).

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هى استقامة الاحتياط ، وهى قد تسمح لك بأن تدخل فى التحريم ما ليس داخل فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿وَأَتُوا حَقَّ يَوْمٍ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٤) .. (١٤١) [الأنعام]

(١) قال النووي فى شرحه: معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمتنعهم دخوله، فمن دخله لوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه، (٢/٢٢٠) ط، فؤاد عيد الباقي.

(٢) الرتع: الأكل بشربه. والرتع فى الخصب هو الرعى فيه. وأرتع القوم: ولعوا فى خصب ورجوا. [اللسان: مادة رتج].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥٦) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف: جاوز القصد والاعتدال. فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٥٥) [القرآن] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ..﴾^(٥٦) [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿فَلَا تُسْرِفُوا﴾ فى القتل .. (٥٧) [الإسراء] أى: لا يقتل أكثر من القاتل. كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُظْهِرُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٥٨) [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين: لا إسراف فى الخير، ولا خير فى الإسراف. [القاموس القويم: مادة (سرف)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧١٢٠

والنهي عن الإسراف هنا : ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة تفدكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأولد^(١) فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول : يا ليتني لم أعط. وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سُدُّوا^(٢) وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل»^(٣) : لأن الدين قوی متين^(٤) . وه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه^(٥) .

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحل أيضاً ، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهرادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه سُكُنَةً الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك تذكراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزاوله ذلك القدر يكتشف صعوبة ، فتكرهه نفسه.

(١) الأول : أي ما يكون قوتاً ضرورياً له ، فتقوم به حياته.

(٢) سد الشيء سداً وسدواً : استقام . يقال : سد السهم . وسد فلان : أصاب قوله وقطعه . وسد قوله وقطعه : استقام وأصلب فهو سديد . والسداد الاستقامة والقصد ، والصواب من القول والفعل . [المعجم الوسيط : مادة (سد) بتصرف].

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لن هذا الدين ستهن فلو غلوا فيه برفق» أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٢).

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا راسعينا بالعبادة والروحة وشيء من الدلجة ، أخرجه الترمذي في سننه (١٢٢/٨).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة في تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بين^(١) ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهاة لا يعلمون كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ^(٢) لدينه وعرضه»^(٣).

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحيط مرة بالزيادة ، وأن نحيط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام ، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى في المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»^(٤) وهو جزء من الكعبة . لكن نفقته أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه^(٥).

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالي المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

(١) بين: صيغة مبالغة من البيان: أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من التمن والتذب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشيء: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٧٠٥٦) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث الثعلبان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار ، وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهري: الذى فيه المذابح وإنما سمي حطيماً لأن البيت رافع وترك ذلك معطوفاً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن النجر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن باب مرتفع؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وأن الزق بابي بالأرض، متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (١٥٨٤) ومسلم في صحيحه (١٢٢٢ - رواية رقم ١٠).

سُورَةُ هُودٍ

٦٧١٤

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك : هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد.

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.

وهكذا نجد الاحتياط هو الذي يحدد معنى الاستقامة.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٦) ﴾ [هود]

وفي الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١٥) ﴾

[هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ (١١٦) ﴾

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصِرُونَ (١١٧)

(١) ركن يركن ركنًا وركبًا: مال إليه وسكن. وركن الشيء: جانبه الأقوى. قال تعالى: ﴿ .. أَرَأَيْتَ إِنْ رَكَنَ شَيْءٌ (١١٦) ﴾ [هود] أي: ألجأ إلى حسن قوى يميني، أو إلى رجل قوى يميني ويصبرني عليكم، كأنه ركن ممتنع حصين. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ ... (١١٦) ﴾ [هود] أي: لا تميلوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لَا أَنْتُمْ مَالِكٌ لَكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا دِينَكُمْ فَذِكْرٌ لِلَّذِينَ هُمْ شَيْءٌ قَلِيلٌ (١١٧) ﴾ [إسراء] أي: تميل إليهم. [القاموس القويم : مادة (ركن)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧١

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد
آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع
وفصل في هذا الأمر.

ويأتى هنا تأكيد هذا الأمر : فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ^(١) .. ﴾ (١١٣) [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركنت
للظالم : أدخلت في نفسه أن لقوته شأنًا في دعوتك.

والركون أيضاً يعنى: المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن
تزيّن للناس ما فعله هذا الظالم.

وأفة الدنيا هي الركون للظالمين : لأن الركون إليهم إنما يشجعهم
على التماهى في الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى
الظالم ألا تمتعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن
تزيّن له هذا الظلم : وأن تزيّن للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقررات وضع الظلم في العالم كله لوجدت أن آفات
المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم : لكنك حين
تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك : فلسوف يظن أنك لم
تُعْرض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر : فيقترزلزل في نفسه :
حاسباً حساب القوة التي تركز إليها : وفي هذا إضعاف لنقوده : وفي
هذا عزلة له وردع : لعله يرتدع عن ظلمه.

(١) الظلم . مجاوزة الحد ومعارفة الحق أو فضعه وانتقاصه. وهو ضد العدل. قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٣) [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ .. [الكهف]. والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظُلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم] وظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق] ، وظلوم اسم مفعول يقول الحق: ﴿ وَمَنْ قِيلَ لَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الإسراء] [القاموس القويم ١/ ٤١٦ : ٤١٧].

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون : لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمْ ^(١) النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصرون ^(١١٣) ﴾ [هود]

فانتم حين تركبون إلى ظالم إنما تقعون في عداة مع منهج الله ؛ فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى . ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ^(١١٤) ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ . ونحن نلاحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي ؛ والأمر بالخير نائماً ؛ والنواهي عن الشر نائماً . ونلاحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ لَأَسْأَلَنَّكُمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ .. ^(١١٧) ﴾ [هود]

(١) سمى بمسمة ميم : أجرى يده عليه من غير حائل . ومسمة النار : أسابته ، وبالشدة يلهي ، فأذته . ومسمة المرء - على المجاز - لمصابه ، قال تعالى : ﴿ .. وَإِذْ أَسْنَأُ الثَّوْكَانَ نَقَمًا ^(١١٥) ﴾ [الاسراء] . [القلموس القويم : مادة (مس)] .
(٢) زلف إليه ينال زلفة وزلفى : قرب ، ودنا . قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نُوحُ اذْهَبْ .. ^(١١٦) ﴾ [الملك] أي : قرباً . وهو وصف بالمصدر بالفتحة ، ويعرب حالاً ، أي : ذا قلب أي : قريباً قريباً شديداً . والزلفى : القرب ، والمنزلة والدرجة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَوَّاكُم وَلَا لَوْلَاكُمْ لَفِي تَقَرُّبِكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى .. ^(١١٧) ﴾ [سبا] أي : قرباً ، مفعول مطلق مرادف ، لو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا ، والزلفة : الطائفة من الليل . وجمعها : زلف . قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ .. ^(١١٤) ﴾ [هود] أي : أوقاتاً وساعات من الليل . قيل : في أوله . وقيل : في أي وقت فيه . [القلموس القويم : مادة (زلف)] .

سُورَةُ قُورَآئِنْ

٦٧١٨

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ؛ فما على تعيين الوسط بعد طرفاً ؛ وما على يسار الوسط بعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادة ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها بقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها بقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين والتي على اليسار بعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. ﴾ (١٧٤) [هود]

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من براكيز الفجر الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر؛ فإن وقع الظهر قبل الزوال^(١) حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط. وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر^(٢).

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزَلَّاقًا مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤) [هود]

يقتضى منا أن نفهم أن كلمة ﴿ زَلَّاقًا ﴾ هي جمع: زلفة، وهي مأخوذة من: أزلقه ، إذا قرَّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة

(١) الزوال: الوقت الذي تكون فيه الشمس في كبد السماء. [المعجم الوسيط : مادة (زول)].

(٢) قال ساجد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، وأخبره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب. قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني العصر وجده، وقال قتادة والضحاك. نقله القرطبي في تفسيره (٢/٢٤٢٨).

واختلف العلماء في معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هي ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أقلل تذهب ما دون الكفر ؟

وهكذا يخفف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله.

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتسأل بعض العلماء: هل الفرائض هي الحسنات التي تذهب السيئات؟

وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد ورثت عن رسول الله ﷺ عن حسنات في غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات ^(١).

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذي رزقني من غير حول ^(٢) مني ولا قوة ، والحمد لله الذي

(١) من فتاوة ابن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة بعده».

(٢) القول: الحق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف في الأمور. [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

شیوہ لاہور

[illegible]

كسأني من غير حول مني ولا قوة^(١). وهذا القول يكفر السيئات.

ألم يقل ﷻ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ^(٢) ؛ فهذا القول كفارة ^(٣) ؟

إنّ: فالحسنات مطلقّة سواء أكانت فرضاً أم غير فرض ، وفي قذهب السيئات . والسيئة هي عمل توعد الله - سبحانه - من مفعله بالمحقومة .

وتسأل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يرفع ويُسجل ، فكيف نُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يغفر الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فسلأ يعاقبك عليه ، أو يكون ذهاب العمل في ذاتة فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل:

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام وبرّقني به من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» ومن ليس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كساني هذا اللثوب وبرّقني به من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٣٣) وكذا ابن ماجه (٢٢٨٠).

(٢) عن أبي النرداء قال قال رسول الله ﷺ: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن وجيلان المضاي كما تحيط الشجرة وزيها وهي من كنوز الجنة».

قال المفسري في التورغيب (٢/ ٢٤٨) : «رواه الطبراني بإسنادين أصحهما فيه عشرين راويًا وبقيّة رواه محتج بهم في الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات ورواه ابن ماجه عن طريق عمر أيضا باختصار».

(٢) الكفارة ما شرعه الله من القربات لسوء الذنوب وخفارتها، مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿لِكْفَارَةِ

إِطْعَامِ عَشْرَةِ سَاكِينٍ ..﴾ [الحج: ٣٠] [القاموس القويم : مادة (كفر)] . وقال ابن منظور في

اللسان (مادة : كفر) : «تكرر ذكر الكفارة في الحديث وهي عبارة عن الفعلة والفصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي : تمحوها وتستبرأ» .

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٧٢

[ق]

﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨)

ويقول سبحانه:

[الانظار]

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (١١)

ومكذا يكون إذهاب الميثة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ (١٧) إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ

[النجم]

الْمَغْفِرَةِ .. (٢٢) ﴿

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

[المنكيات]

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٣٥) .. (٣٥) ﴿

(١) لفظ التواة بلفظها لفظاً : رماها. ولفظ الكلمة: نالها. قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

(١٨) ﴿ [ق] أي: كل كلمة يكلّمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد: أي: حاضر مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم : مادة (لفظ ، عتد)].

(٢) اللمم: صفائر الذنوب. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٥) [النجم]. [القاموس القويم : مادة (لمم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ [النجم] : « كل شيء بين السدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفّر الصلوات فهو اللمم. وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة، ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٥٦/٤).

(٣) الفحشاء : الفحش، وهو العمل القبيح المنكر . قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَهْدِكُمْ أَفْقَرُ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ .. ﴾

(٣٨) ﴿ [البقرة] أي: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل، والفواحش هي الأمور النجسة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

والمنكر : ما يستقيحه الشرع الشريف، وما تستكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (٥١) [آل عمران] [القاموس القويم : مادة (نكر)].

سورة هود

٦٧٢٣

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجدها خمسة مواقيت ، فمن تعلّق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتي وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدة ، ولو لم يأت له وقت صلاة لأحس بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلبه يتجه له سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينمّ على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس في وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة.

وهناك أعمال كثيرة من القروض والحسنات وهي تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، ولا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنات الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فلإنما تكتب واحدة^(١).

ويُنهي الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١١٤)

[هرد]

أى: أن إقامة الصلاة طرّفى النهار ، وزلفاً من الليل هي حسنات تذهب السيئات ؛ وفي ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شيء قُفِل عنه ، أى: أن هذا الشيء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتتسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشيء ، والإخبار الثانى يذكر

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت ، أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٠) كتاب الإيمان .

بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المراتى والمدرجات ، تتوالى وتصير الأشياء التي في بؤرة ^(١) الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار في حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكّر بما غاب في حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً في بحر ، فهذا الحجر يستقر في بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفى من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة في حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والاتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ في تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هي قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التي تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصانف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعى ما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك أفاق المسئولية التي تتبع المعصية ، وهي العقاب.

(١) بؤرة الشيء: مركزه. أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه. أي: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) في المخ. وببؤرة في اللغة: الحفرة. وهي مأخوذة من البذر. أما البؤرة في علم الطبيعة فهي نقطة تتلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض درنها شيء. [المعجم الوسيط: مادة (باز) بتصريف وإضافة].

سُؤَالُهُمْ

❖ ٦٧٢ ❖

ولذلك يقال: «لا خير في خير بعدد النار ، ولا شر في شر بعدد الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خوارطها عنها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤) [مرد]

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا ■ ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة ، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكّي ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقى لك من وقت ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فلك أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلك أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي^(١).

ومكذا تجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولا أهميتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمق في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بين يونسير، فسألت النبي ﷺ فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الإسلام أحمد في مسنده (٤٢٦/٤) والبخاري في صحيحه (٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ - الفتوح). قال الشيخ سيد سابق في تفة السنة (١٠١/١) ، «من عجز عن القيام في الغرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة ^(١) وهي تحية لامة محمد ﷺ؛ نظراً لأنها شرعت في قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى. لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب امة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهي الباقية.

ويُحَكِّى أن الإمام علياً - كرم الله وجهه ورضى عنه - أقبل على قوم وقال لهم: أى آية في كتاب الله أُرْجَى عنكم ؟

أى: ما هي الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هي قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ..﴾ (١١٦)

[النساء]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التي يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا

رَحِيمًا﴾ (١١٠)

[النساء]

فكرر الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هي قول الحق سبحانه:

(١) وذلك في ليلة الإسراء والعجراج عند سكرة المنتهى، ذكره البخاري في أول كتاب الصلاة (١٥٨/١) فيه: قال النبي ﷺ: «ثم هرج بس حتى ظهرت لعميتوى أسمع فيه صريف الأقدام، ففرض الله على أمي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعني ففرض شطرهما، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرهما، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: في خمس وهي خمسون، لا يبذل القول لدى، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك، فقلت: استحييت من ربي» حديث ٣٢١٩.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا^(١) عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا^(٢) مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. ﴿٥٣﴾﴾
[الزمر]

فقال الإمام علي: حسنة . وليست إياها.

فقال بعضهم: هي قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً^(٣) أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴿١٣٥﴾﴾
[آل عمران]

فقال الإمام علي: حسنة . وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا . فقال الإمام علي كرم الله وجهه: ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتكم؟ فقالوا: لا شيء.

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، ويكون الإسراف في المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] أي: جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة، فلكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إتيان المال وحده. ومن حكم الصالحين: «لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف». [القاموس القويم: مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط: يقنط فنوطاً: انقطع عمله في الخير، أو بنس منه، فهو قانط، وقرا حفص بفتح النون في الماضي في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزَكِّي الْفَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. ﴿٥٤﴾﴾ [الشورى] وفي قوله تعالى: ﴿.. فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر]، وقريء: «من القنطين» - بكسر النون - كما قرئ بالحركات الثلاث في النون في قوله تعالى: ﴿.. وَمَن يَقْنَطْ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الْعَاكِرُونَ﴾ [الحجر]. وقنوط: صيغة مبالغة، قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ سَعَةَ الشَّرِّ أَفْوَسُ مِن سَرَطٍ﴾ [الحصلت] أي: شديد اليأس معدوم الأمان. [القاموس القويم: مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فَحِشٌ، وَفَحِشٌ، لِحْشٌ، فهو فاحش: أي: جاوز الحد، وفعل القحيح. والفاحشة: الفظة النجاسة. قال تعالى: ﴿وَأِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً .. ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ بِأَنزِلِ الْفَاحِشَةَ .. ﴿٤٢﴾﴾ [النساء] أي: الزنا. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا الْفَوَاحِشَ .. ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام] أي: لا تقرّبوا الأمور القبيحة المتكررة. [القاموس القويم: مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبنى عليه ما سوف يقول لهم:
ولشرايت^(١) أعناقهم ، وأراملوا السمع ، فقال لهم الإمام على: سمعت حبيبي
رسول الله ﷺ يقول: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ هِيَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ
ذِكْرٌ لِّلَّذِينَ لَدَّا كَرِهْنَا ﴾ (١١٤) ﴿

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فستساقط عن جوارحه ذنوبه .
فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينقل^(٢) - أي: لا يلتفت - إلا وقد
غفر الله له كل ذنوبه كيوم وليته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين
فله ذلك . ثم عدّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال: بين الصبح
والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب
والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : «يا على إنما الصلوات
الخمس لامتى كنهر جار بباب أحدكم . أو لو كان على جسد واحد
منكم دون^(٣) ثم اغتسل في البحر ، أيبلى على جسده شيء من
الدون؟ قال: فذلكم والله الصلوات لامتى ، .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا
مجال الصلاة . فمجالها كل عمر الإنسان .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥) ﴿

(١) أهراق إليه، أو أهراق له ، أهراقاً له وهراقاً له: مد عنقه، أو ارتفع لينظر. [المعجم الوسيط :
مائة (شراً)].

(٢) انقل: التروى. وانصرف: ويقال: انقل عن رايه وعن حاجته وانقل وجهه عنهم. [المعجم
الوسيط : مائة (قتل)].

(٣) دون الشيء: دوناً : وسخ وتلطخ، يقال: دون الثوب، ودونت يداه بكذا، فهو دون، ودون، وهي
دونا، وأم دون: الدنيا، [المعجم الوسيط : مائة (دون)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٩

وجاءت كلمة «اصبر» لتفد كل عمليات الاستقامة.

وكنذك بقول الحق سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ^(١) عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [خه]

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلّي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين: في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ^(٢) بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها^(٣).

وافرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستعين.

(١) اصطبر: على وزن اقشطر، ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [خه] وقال تعالى: ﴿لَا تُصْنِئْ وَاصْطَبِرْ لِمَادِهِ .. (٦٥)﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نُرِثُهَا إِنَّا هِيَ قَتَلْتُمُوهَا فَارْتَبِعُوا وَاصْطَبِرْ (٢٢)﴾ [الفرج]. [القاموس القويم: مادة (صبر)] بصرف.
(٢) حُفَّتِ النار بالبيت، أو عن حوله: أطلقوا به وأحرقوا حوله. قال تعالى: ﴿وَحَفَّتْهَا بِنُفْرِ (٣٢)﴾ [الكهف] أي: جعلنا للنخل يحيط بالجنتين. [القاموس القويم: مادة (حلف)].

وحف الشيء حفاً وحفاً: استدار حوله وأحرق به. ويقال: حَفَّ الشيء بالنفس. وحوله: ومن حوله. [المعجم الوسيط: مادة (حقف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حَفَّتِ الجنة بالمكاره، وحَفَّتِ النار بالشهوات» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢) قال النووي في شرحه: «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمراشقة عليها والصبر على مضائها وكظم الغيظ والعنو والظم والصدقة والإحسان إلى العسرى والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظلمر أنها الشهوات المعرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والفجوة واستعمال العلامى ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المعرمة أو يقضى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يعوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها».

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٠

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شيء على تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَأَمِيرٌ^(١) عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ ۞ (١٧)﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَمِيرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ (١١٥)﴾ [مرد]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله نوب ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبیت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابد لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألا تدخل في مقام الإحسان تذكراً^(٢) ؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في ودٍّ إحسانى ثم تغتر عنه ، وكأنك - والحياء بالله -

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، وعلى الطاعة. وإما صبر على المستورات، وهو التواصي. وإما صبر على المفنورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإنما تحققت الثلاثة كنت من أمل الفلاح، مصداقاً لقول الحق : ﴿يُنَادِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَابَرُوا وَآمَنُوا وَرَابَهُوا وَأَتَوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ (٤٤)﴾ [قل عمران]

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تغفروا قبل النذر لا يغني من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل». أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٤٠). والترمذي في سننه (١٥٢٨) وكذا النسائي (١٧/٧). قال النووي في شرحه: «معناه أنه لا يأتي بهذه القرية طوعاً محضاً مبتدأً وإنما يأتي بها في مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه».

سُورَةُ الْهُجُرَاتِ

٦٧٣١

قد جُرِّبَتْ مودة الله تعالى ، فلم تجده أملاً لها ، وفي هذا طغيان منك .
 وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ يدخل مقام الإحسان فلا
 تتكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما قُرِضَ عليه ، وبين
 من تجاوز ما قُرِضَ عليه من جنس ما قُرِضَ الله .
 وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ،
 وقم لتصلي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عملك ،
 وحين يجئ الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من
 ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ،
 وامتلات بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر
 على مَنْ يرتاض^(١) هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد
 أنار بصيرته بتجليات من وسائل إبراك وشفافية .
 ولذلك لا تجد واحداً من أهل النور والإشراق يدعى ما ليس له ،
 والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها
 له؛ لأن الله سبحانه ونعالي قد خَصَّهُ بأشياء وصفات لا يجب أن
 يضعها موضع القباهي والمراءاة .

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض
 ولغير المرتاض ، هي قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى رفتهاه
 عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

(١) راضه روحاً ورياضاً ورياضة. نلأ. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالتقوى، وراض القوافي
 الصنية. وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذل. وارتاضت القوافي: ذلت. والرياضة -
 عند الصوفية - : تهذيب الاخلاق النفسية بما لازمة العبادات، والتخلي عن الشهوات. [المعجم
 الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

﴿ .. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ^(٦٥)﴾

﴿ علما (٦٥)﴾

[الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿ .. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٦)﴾

[الكهف]

وبين العبد الصالح لموسى - بمنتهى الأدب - عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ^(٦٧)﴾

[الكهف]

ورد موسى عليه السلام:

﴿ .. سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٨)﴾

[الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿ .. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٦٩)﴾

[الكهف]

(٦) لمن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإنا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما تون اللفظية وأضحت في توحيها مثل قوله تعالى: ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُتْرًا (٦٥)﴾ [الكهف] . وجاءت مضادة إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿ وَخَبْرَ قَدْ مَن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٦٥)﴾ [ال عمران] . وإلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله تعالى: ﴿ .. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا مَلَكًا (٦٥)﴾ [الكهف] . وتضاف إلى ضمير الفاعل كقوله تعالى: ﴿ الْبَارِئُ يَلْمِزُ الْمُغْبِيَّ مِمَّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُتَزِينَ .. (٦٧)﴾ [الكهف] [القاموس القويم: مادة (لن)] .

(٧) خير الأمر، وخير بالأمر، مثل: علمه، وعلم به - وبذا ومعنى - فهو به خير. قال تعالى: ﴿ .. فَأَمَلْ بِهِ خَيْرًا (٦٦)﴾ [الفرقان] . وقال تعالى: ﴿ سَأَتَّكِمُ مِنْهَا خَيْرًا .. (٦٧)﴾ [الذحل] أي: ينو. وقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨)﴾ [الكهف] أي: علما. [القاموس القويم: مادة (خير)] .

(٨) الذكر: القرآن. والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَعَزُّ نَزْغًا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِقُونَ (٦٩)﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدًا وَكِفًا (٦٧)﴾ [مريم] أي: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿ رَوْحًا لَّكَ ذِكْرًا (٦٨)﴾ [الشرح] أي: شرفك وحديث الناس عنه بالخير. [القاموس القويم: مادة (نكر)] .

وجاء في [مختصر تفسير الطبري: ص ٣٢٧] في تفسير هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا .. (٦٩)﴾ [الكهف]: يقول: «حتى أذكر لك ما ترى من الاحمال التي افعليها وتستكرها انت، وابين لك شأنها، وأبشركم الخبر عنها» .

ولكن الأحداث تراءت ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح :

﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .. (٧٨) ﴾ [الكهف]

وهذا حكم اذلى بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقى مع غير المرتاض على ذلك ، ويلزم غير المرتاض الأدب مثلما يلزم المرتاض الأدب ، ويقدم العذر في أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه .

ولو أن المرتاض قد عثر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض قاذب مع المرتاض لاستقر ميزان الكون .

والحق سبحانه يبين لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين ، في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

ويبين الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، في قوله سبحانه :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف في الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، والمسلم أن يصلى العشاء ، وينام إلى الفجر .

وتستمر مدارج الإحسان ، فيقول الحق سبحانه :

(١) هجع يهجع هججاً : نام ليلاً . قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات] .
[القاموس القويم : مادة (هجع)] .

[الذاريات]

﴿وَبِالْأَسْحَارِ^(١) هُمْ يَسْتَفِرُّونَ^(٢)﴾

والحق سبحانه لم يكلف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

[الذاريات]

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٣)﴾

ولم يحدد الحق سبحانه منا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم. وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه.

والله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، وبفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالناس ممن يدخل في رُدِّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

(١) السحر - بفتح السين والحاء - : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعه: أسحار. قال

تعالى: ﴿...وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١٧)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَفِرُّونَ^(١٨)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير. أو من يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ^(١٩)﴾ [التكمي] يستل المحننين . السائل الذي يطلب الصدقة. والسائل المستغفر عن شيء. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْأَلِ الَّذِينَ أُوتُوا^(٢٠) مِنْهُمْ وَلْيَسْأَلِ الْفَرَسَيْنِ^(٢١)﴾ [الاعراف] أي: لضعفين الناس والرسول يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: المنوع من الخير. قال تعالى: ﴿بَلْ تَحْنُ مَحْرُومُونَ^(٢٢)﴾ [الواقعة] أي: حرمانا شعر المدينة وحرمانا الخير كله. والمرمان: الضعف. والمحروم أيضاً : اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٢٣)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

٦٧٣٥

(١)
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودَ
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا مُحْرَمِينَ ﴿١٦﴾

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل
لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه ،
تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ۚ ﴾ [يونس]

وذكرهم بالآيات. ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة ،
فهى إن دخلت على جملة اسمية ، فهى تدل على امتناع لوجود ، كقول
إنسان لآخر: «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أدنيت» وتسمى «لولا»
في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهى أداة تحضيض ،
وتحميس، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما نشجع طالباً على
المذاكرة ، فنقول له: «لولا ذاكرت بجد واجتهاد فى العام الماضى لما
نجحت ووصلت إلى هذه السفة الدراسية».

(١) أولو البقية : أصحاب التمييز والعقل والنظر فى العواقب وأصحاب الفضل الباقي والخير الثابت.
قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ۖ ﴾ [هود] .
والبقية : الباقية والشيء الباقي. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

(٢) ترف ترفاً : ترفع . وترفع الله : ترفع وأعطاه ما يشتهى . قال تعالى: ﴿ وَأَرْفَعُهُمْ لِيُعَبِّدَهُ النَّاسُ ۚ ﴾ [المؤمنون] . وقال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ ۖ ﴾ [هود] أى: جروا وراء
شهواتهم وتمادوا فى الترف فابطروهم وأطغاهم. [القاموس القويم : مادة (ترف)].

وفى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب :
هلولا ذاكبرت لما رسبت ، فهذا توبيخ وتاسيف له على ما فات ،
وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛
لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ ^(١).

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت
أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشئ التافه أولاً ،
ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشئ القوى ؛ لأنه ثابت على
أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها.

والحق سبحانه قد بين لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ؛ لأنه لم
توجد قسمة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع
من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويحل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (السمية) ويحذف
الخبر وجوباً إذا كان كونه عاملاً وإذا دلها مضمراً يكون ضمير رفع منفصل مثل : ﴿لولا لم نكن﴾
﴿يؤمن (٥٦)﴾ [سبا] . وجملة الجواب (قطعية) وتقرن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب ، وتتجرد منها
إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكن منكم من أحد أبداً ..﴾ [النور] ﴿٥٥﴾
الجواب من اللام لأنه منفي بالمعروف (ما) ، ولقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل
كقوله تعالى : ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾ [النور] . وتقدير الجواب :
«لستكم فيما أفضتكم فيه عذاب عظيم» ، كما وضحت الآية التى بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتخصييض مثل (ملاً) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى :
﴿لولا تستغفرون الله ..﴾ [النمل] . وتدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى : ﴿لولا
أخترتني إلى أجل قريب ..﴾ [المعاقبون] أى : لولا تؤخذنى - وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتنبيه
فتختص بالماضى . كقوله تعالى : ﴿لولا جاءوا عليه بالرجم شهداء ..﴾ [النور] وقوله تعالى : ﴿ولولا
إذا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ..﴾ [النور] وقوله تعالى : ﴿قلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا
..﴾ [الانعام] ولولا هنا بمعنى (ملاً) للتوبيخ . ويقيد القراءة : «ملاً إذا جاءهم بأسنا» .

[القاموس اللغوي : مادة (لولا)] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٣٧﴾

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء . وأنها هي التي تبقى أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفَعُوْا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُّوْا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦)﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام:

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١) وَلَا تَبْخَسُوا (٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥)﴾ [هود]

فانت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مخزواً لك باقياً.

ولنا المثل في موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حينما سألها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

(١) أفسط : عدل . وأزال الظلم أو الجور . قال تعالى: ﴿... وَتَقْسِطُوا إِذَ اللَّهُ يَكِبُ الْمُنَظِّطِينَ (٦)﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمُرُّ بِالْقِسْطِ .. (٢٩)﴾ [الأعراف] أي: بالعدل. وقال تعالى: ﴿وَالْيَهُودُ يَوَازُنُونَ بِالْقِسْطِ .. (١٥)﴾ [الرحمن] أي: بالعدل. وقال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٦)﴾ [هود] أي: بالعدل. [القاموس القويم : مادة (قسط)].

(٢) بخسه حقه بخساً . نقصه حقه ولم يوفقه . قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥)﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (بخس)].

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها^(١)، فتصدقك بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها، فلما سألتها: ما فعلت بالشاة؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعي: بأن الباقي من الشاة هو كتفها فقط، وأنها تصدقت بباقي الشاة، ويلفتها رسول الله ﷺ لفظة إيمان ريقين، ويقول لها: «بقي كلها إلا كتفها»^(٢).

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقي من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قاله ﷺ: «وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت» أو تصدقت فأمضيت»^(٣).

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور، وإلى المدخور، فيقول الحق سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا...﴾ (٤٦) [الكهف]

ويعصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

(١) أخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ﷺ) (ص ٢٠٦) عن ابن عباس وكان يحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف. وأخرج البيهقي في صحيحه (٤٧١٢) عن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه النزاع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة، قال الترمذي: «حديث صحيح».

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٢٦، ٢٦) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) والترمذي في سننه (٢٢٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء: ضد فنى. وبان: اسم فاعل، مؤنثه: باقية. قال تعالى: ﴿وَيَقْرَأُ رُبُّكَ ذُرَّ الْقُلُوبِ وَالْإِحْرَامِ﴾ (٢٧) [الرحمن] وقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...﴾ (٢٨) [الزحل]. والبقية: الباقية، والشئ الباقي. وجمع بقية: بقايا. وجمع باقية: باقيات. قال تعالى: ﴿...وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ لَّكَ﴾ (٤٦) [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التي يبني خيرها في الناس من خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم: مادة (بقى)].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٣٩﴾

﴿.. ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا﴾^(١) [الكهف]

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مُرَدًّا﴾^(٢) [مريم]

إذن: لا بد أن تنتظر إلى الباقيات في الأشياء ! لأنها هي التي يُعَوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣) [الاعلى]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى..﴾^(٤) [النصص]

إذن: فإياك أن تنتظر إلى الذاهب ، ولكن أنظر إلى الباقي.

وإذا عضت الإنسان الأحداث في أي شيء ، نجد أن سطحي الإيمان يفرغ مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكرًا لله تعالى على ما بقى.

وما هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - حينما

(١) أمل يامل أملاً واملاً وأملاً : رجا يرجو. والامل، الرجاء. قال تعالى: ﴿..وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا﴾ [الكهف] لأنه وجاء عند الله متحقق، لا شك فيه. [القاموس القويم : مادة (أمل)].

(٢) مرَدًّا: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمي. قال تعالى: ﴿وَأَنْ مُرَدًّا إِلَى اللَّهِ..﴾ [غانى] أى: رجوعنا إليه - على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى: ﴿وإذا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ..﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتمًا. [القاموس القويم : مادة (رد)]. وجاء في [كلمات القرآن للشيخ محمد حسين مخلوف] أن كلمة (خير مرَدًّا) أى: مرجعًا وعائبة.

جُرحت ساقه جرحاً شديداً، وهو في الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة . فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين.

وكان هذا القول يعني أن تجري له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلمّا قُطعت الساق . ولرأدوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسببه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فامسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو ؛ فقد عاقبت^(١) في أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقى.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقى الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (٤٠) [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ .. ﴾ (٦٠) [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد في كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

(١) عفا الذنب: كثر وطاله وعفا القوم كثروا. يقول الحق : ﴿ تُمْ بَلِّغُوا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا . ﴾ [الأعراف] أي: كثروا وعزوا واغتفوا. والعفو في المال ملازاة عن النفقة. يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَلَا يَنْفَعُونَ لَلْأَعْفِو .. ﴾ (٤٩) [البقرة] وعفا عن الذنب عفواً: تجاوز عنه، وعفواً صيغة مبالغة أي: كثير العفو. يقول الحق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَعَفَّى عَفْوَ ﴾ [الحج]. ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْبِ .. ﴾ [الأعراف] أي: خذ ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاحْفَظْنَا وَارْحِمْنَا إِنَّتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨٣) [البقرة] القاموس القويم (١/٢٧، ٢٨).

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ^(١) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ ^(٢) فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا نَجَّيْنَا مِنْهُمْ .. ﴾ (١١٦) ﴿

[هود]

أى: لولا أن كان في الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان، وبقية من اليقين، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها.
والبقايا في كل الأشياء هي نتيجة الاختيار، والاختبار: مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ ^(٣) فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ ^(٥) فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١٧) ﴿

[الرعد]

(١) القرن من الناس أهل زمان واحد. قال تعالى: ﴿ فَأَفْلَكُكُم بِثَنِيَّتِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ (١١٦) ﴿ [الأنعام]، وجمعه: قرون. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا قَالُوا .. ﴾ (١١٧) ﴿ [يونس]، [القاموس القويم: مادة (قرون)].

(٢) فسد فساداً، والفساد: ضد الصلاح. وأفسده غيره: جعله فاسداً. قال تعالى: ﴿ .. وَيَسْهَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١١٦) ﴿ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَقْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١١٦) ﴿ [البقرة]، وكلمة مفسدين حال مؤكدة بمعنى الفعل، تعقوا أى: لا تقصدوا في الأرض فساداً. [القاموس القويم: مادة (فسد)].

(٣) زبد الماء: ما يعلوه - عند جيشاته واضطرابه - من الرغوة وحطام الأشياء. وزبد المعادن: خبثها ونفاياتها. قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ رَأْيَا .. ﴾ (١١٧) ﴿ [الرعد] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴾ (١١٧) ﴿ [الرعد] شبه الله - سبحانه - الباطل بالزبد الذي يلقى ويرى، لأنه لا ينفع الناس [القاموس القويم: مادة (زبد)].

(٤) جفأت القدر: رمت زبدتها عند الغليان. وجفأت السيل غشاه: رماه وقتفه. ومن عادة الطهارة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١٧) ﴿ [الرعد] أى: لا ينتفع به، ويلقى بعيداً، أو يذهب ضياعاً كالجفاء. [القاموس القويم: مادة (جفاء)].

(٥) مكث مكثاً ومكثاً: أقام في مكانه، وتيقّد التأنى وعدم العجلة. قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ .. ﴾ (١١٧) ﴿ [النمل] أى: استمر الهدوء في غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١٧) ﴿ [الرعد] أى: يقى مدة طويلة فيها؛ فيزيدها خميساً. وقال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْتَ قَارًا .. ﴾ (١١٧) ﴿ [طه] أى: أقبلوا في مكانكم منتظرين. وقال تعالى: ﴿ وَفَرَأْنَا نُفُوزَهُ لِقَرَاءِهِ عَلَى شَايٍ عَلَى مَكْثٍ .. ﴾ (١١٧) ﴿ [الإسراء] أى: على سهل وثان بخير عجلة لى أزمة متطلولة. [القاموس القويم: مادة (مكث)].

وفى العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إذن: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد فى الأرض : لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال له ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذى كَوَّنَ الكون بكماله.

واقراً إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَرُوا (٨) فِي الْمِيزَانِ (٩)﴾
[الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة : فلکم أن تعدلوا فى الكون فى الأمور الاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاقل خير الكاذب ، ويرى الناس العاقل ، وهو يحيا فى ترف من سرقة خير الكاذب ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

(٦) طغى يطفو طفوئاً وطفوى: بمعنى تجاوز الحد فى الجور والتعدي وطفى يطفى طغياناً: تجاوز الحد . وطفوى من الزارى، وطفيان من الياش. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْأَرْضِ (١٧)﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ بِالطَّاغِيَةِ (٥٠)﴾ [الحاقة] أى: بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. [القلموس القويم : حادة (طفى)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسين مخلوف]: ﴿.. وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٦)﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿أَلَّا تَطْغَرُوا .. (٨)﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

وينزوي أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهي غير مصونة بالعدالة. وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين، وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١١٦)

[هود]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهروا عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ^(١) وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ^(٢) .. ﴾ (١١٧)

[آل عمران]

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتي بعد أن يتقلص الخير في المجتمعات ، وفي النفوس.

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق في النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية في الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع

(١) المعروف: ضد المنكر. وهو الذي تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن. قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا إِذَى .. ﴾ (٢:٢٦) [البقرة] ، وقال تعالى: ﴿ .. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (٢٤:٢٤) [الأنعام] ، [القاموس القويم: مادة (عرف)] بتصرف.

(٢) المنكر: ما يستقبحه الشرع الشريف. وما تستفكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْرِ وَالْمُرُوءِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (٢٤:٢٤) [آل عمران] ، [القاموس القويم: مادة (نكر)].

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوامة» ، ويستسلم للنفس الأمارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقوّمه ، فإنما ما فسد المجتمع ، فالصماء قد تدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد آمنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدمر إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر^(١)؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء امتي كأنبياء بني إسرائيل»^(٢).

والعالم هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها ، وأدّاها إلى من لم يسمعها ، لربّ مبلّغ أوعى من سامع»^(٣).

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَوَلَمْ يَكْفِ يَنَّهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١٦٦)

[مود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض.

(١) من معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٧٣).

(٢) ذكره المجلوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال: «قال السيوطي في الدرر: لا أصل له» وكذا قال ابن حجر والسميرى والزركشي.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٧/١) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤٥

ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيمهم حينئذهم شُرْعاً ^(١) يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبئون لا تأتيمهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ ^(٢) قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ ^(٣) إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ^(٤) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٥) (١٦٥)﴾ [الأعراف]

(١) شرح: ظهر رأسه فهو شارع أي: بارز ظاهر، وجمعه شُرْعٌ: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَتُهُمْ يَوْمَ سَبْعِهِمْ شُرْعًا .. (١٦٤)﴾ [الأعراف] بارزة ولقمة في الماء. [القاموس القويم: ١/٣٤٦].

(٢) وعنه يعظه وعظاً وعظة: نمسه بالطاعة وبالعمل الصالح، وأرشدته إلى الخير. قال تعالى مصوراً عباد الكافرين: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٦٥)﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم وكبرهم يستري عنهم الامران: الوعظ، وعدم الوعظ.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿.. وَمَرْحُطَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٦٥)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٦٥)﴾ [النحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٣) المعذرة: مصدر ميمي، واسم للعتذار والحجة، وعذره: قبل عذره وسامحه. قال تعالى: ﴿مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ .. (١٦٤)﴾ [الأعراف] أي: اعتذاراً له ببذل الجهد في الصمى لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا مَلَأْنَاهُ ^(١٦٥)﴾ [القيامة] . [القاموس القويم : مادة عذر].

(٤) يزس بيؤس بأساً: شجع وأشد، فهو بيؤس، أي: شديد، ويقال: فارس بيؤس، أي: قوس شجاع. قال تعالى: ﴿.. وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾ [الأعراف] أي: عذاب شديد. [القاموس القويم : مادة (يؤس)].

(٥) فسقت الرطية فسوقاً وفسقاً: خرجت من قدرتها. ومن هذا المعنى المأثور أخذ المفسر المعشوي، فقيل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً. والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً، كالمسلم المماسي. قال تعالى: ﴿.. إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّحُوا .. (١٦٥)﴾ [التحريم]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَانُوا يُزَيَّنُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ الْفَاسِقُ كَانُوا فَاسِقًا .. (١٦٥)﴾ [السجدة] أي: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا - في الآية الأخيرة - بمعنى الكفر. [القاموس القويم : مادة (فسق)] ينصرف.

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن السوء في تلك القرية ، وقد نرى في بعض المجتمعات عنصريين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثاني أن يفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفي افتتاح باب الترف على مصراعيه مذلة للبشر ؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفعه إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانيات بالرشوة والسرقه والفصب.

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفقين يتنعمون بنعيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ^(١) .. ﴾ [الإسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ^(٢) لَهُ الدِّينَ .. ﴾ [البينة]

أى: أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم.

(١) أمرنا مترفيها: أمرنا متعبيها بطاعة الله. ففسقوا: فتمردوا، وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حسين مخلوف].

(٢) أخلص دينه لله. طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء. قال تعالى: ﴿ .. فَأَعْبَدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَا بِكَ الْوَلَدُ الْكَرِيمُ ﴾ [سورة من] أى: إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خاصة خاصة هي ذكرى النار الآخرة، فذكراها والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل. وهي فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم مادة (خلص)].

سُورَةُ الْهُنُوتِ

○ ٦٧٤٧ ○

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرها عنها:

﴿وَاتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ .. (١١٦)﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتصاص دماء الكاسحين.

ومادة (ترف) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان، ومنها: أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أى: أطفته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه. وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ^(١) كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً^(٢) .. (١١٤)﴾ [الأنعام]

نمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظن ظان أنه يدله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من عل ، فيزداد ويعظم ألمه . وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطفوا.

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس مفتوحة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

(١) الباب: مدخل المكان وجسم: أبواب، ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره ، قال تعالى: ﴿وَأَفْطَرُوا قِبَابَ سَجْدًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٦٧)﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب معلق ففتح وتدفق العذاب عليهم. وقال تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١٤)﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاه وغير ذلك، كأنها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) بغتة وبغتة: فجأة على غرة وغفلة. قال تعالى: ﴿.. فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١٥)﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت)].

إِنْ فَتَحَ عَلَيْكَ : فافهم أن النعمة جاءت لتطغيك ، ولكن إن فَتَحَ لك ،
فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ^(١) لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصددها
خوطينا عنها : قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب النصر ! لأنهم غفلوا عنه .
ويُتَمَّى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ ... وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ ﴾ [مود]

أي : كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل : وهو اتباع منهج
السماء : لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» ^(٢) وتعني :
«قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء : والغفلة عن الإيمان بالخالق
سبحانه ، والاستغراق في الترف الذي حققوه لأنفسهم بظلم الغير ،
واخذ نتيجة عرق وجهد الغير .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

(١) فتح يفتح فتحاً : ضد أغلق . ويسمى النصر على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمقتصر . قال تعالى :
﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ... ۝ ﴾ [الأعراف] أي : انصرتنا عليهم . ويجوز أن يكون المعنى :
ربنا افتح بيننا وبين قومتنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عناهم . وقال تعالى :
﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ... ۝ ﴾ [الأعراف] أي : لا يرضى عنهم الله ، ولا يبالون رحمة كان
السماء مغلقة أمامهم كما تنطق أبواب الملوك في وجه الذين لا يرغبون في لقاءهم . [القاموس
القرئيم : مادة (فتح)] .

(٢) جرم الشيء : جرمه : قطعه ، وغلب هذا الفعل على عمل الشر . يقال : جرم : أفسد ، وجنى جنائياً . وجرم
المال : كسبه من أي وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجرم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شُرَكَاءُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ... ۝ ﴾ [المائدة] أي : لا يضلكنم بعض قوم على عدم العدل أي : التزموا
العدل حتى مع من تكلمونهم . أي : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القرئيم - مادة :
جرم] .